شرح الْأسْبَابِ الْجَالِبَةِ لِلْمَحَبَّةِ للشيخ عادل السيد حفظه الله

قال العلامة ابن القيم – رحمه الله –، قال في مدارج السالكين:

فصل فِي الْأَسْبَابِ الْجَالِبَةِ لِلْمَحَبَّةِ، وَالْمُوجِبَةِ لَهَا وَهِيَ عَشَرَةٌ:

أَحَدُهَا :قِرَاءَةُ الْقُرْآنِ بِالتَّدَبُّرِ وَالتَّفَهُّمِ لِمَعَانِيهِ وَمَا أُرِيدَ بِهِ، كَتَدَبُّرِ الْكِتَابِ الَّذِي يَحْفَظُهُ الْعَبْدُ وَيَشْرَحُهُ، لِيَتَفَهَّمَ مُرَادَ صَاحِبِهِ مِنْهُ.

الثَّانِي :التَّقَرُّبُ إِلَى اللَّهِ بِالنَّوَافِلِ بَعْدَ الْفَرَائِضِ، فَإِنَّهَا تُوَصِّلُهُ إِلَى دَرَجَةِ الْمَحْبُوبِيَّةِ بَعْدَ الْمَحَبَّةِ.

الثَّالِثُ :دَوَامُ ذِكْرِهِ عَلَى كُلِّ حَالٍ: بِاللِّسَانِ وَالْقَلْبِ، وَالْعَمَلِ وَالْحَالِ، فَنَصِيبُهُ مِنَ الْمَحَبَّةِ عَلَى قَدْرِ نَصِيبِهِ مِنْ هَذَا الذِّكْرِ.

الرَّابِعُ :إِيثَارُ مَحَابِّهِ عَلَى مَحَابِّكَ عِنْدَ غَلَبَاتِ الْهَوَى، وَالتَّسَنُّمُ إِلَى مَحَابِّهِ، وَإِنْ صَعُبَ الْمُرْتَقَى.

الْخَامِسُ :مُطَالَعَةُ الْقَلْبِ لِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ، وَمُشَاهَدَتُهَا وَمَعْرِفَتُهَا، وَتَقَلُّبُهُ فِي رِيَاضِ هَذِهِ الْمَعْرِفَةِ وَمَبَادِيهَا، فَمَنْ عَرَفَ اللَّهَ بِأَسْمَائِهِ وَصِفَاتِهِ وَأَفْعَالِهِ: أَحَبَّهُ لَا مَحَالَةَ، وَلِهَذَا كَانَتِ الْمُعَطِّلَةُ وَالْفِرْعَوْنِيَّةُ وَالْجَهْمِيَّةُ قُطَّاعَ الطَّرِيقِ عَلَى الْقُلُوبِ بَيْنَهَا وَبَيْنَ الْوُصُولِ إِلَى الْمَحْبُوبِ.

السَّادِسُ :مُشَاهَدَةُ بِرِّهِ وَإِحْسَانِهِ وَآلَائِهِ، وَنِعَمِهِ الْبَاطِنَةِ وَالظَّاهِرَةِ، فَإِنَّهَا دَاعِيَةٌ إِلَى مَحَبَّتِهِ.

السَّابِعُ :وَهُوَ مِنْ أَعْجَبِهَا، انْكِسَارُ الْقَلْبِ بِكُلِّيَّتِهِ بَيْنَ يَدَيِ اللَّهِ تَعَالَى، وَلَيْسَ فِي التَّعْبِيرِ عَنْ هَذَا الْمَعْنَى غَيْرُ الْأَسْمَاءِ وَالْعِبَارَاتِ.

الثَّامِنُ :الْخَلْوَةُ بِهِ وَقْتَ النُّزُولِ الْإِلَهِيِّ، لِمُنَاجَاتِهِ وَتِلَاوَةِ كَلَامِهِ، وَالْوُقُوفِ بِالْقَلْبِ وَالتَّأَدُّبِ بِأَدَبِ الْعُبُودِيَّةِ بَيْنَ يَدَيْهِ، ثُمَّ خَتْمِ ذَلِكَ بِالِاسْتِغْفَارِ وَالتَّوْبَةِ.

التَّاسِعُ :مُجَالَسَةُ الْمُحِبِّينَ الصَّادِقِينَ، وَالْتِقَاطُ أَطَايِبِ ثَمَرَاتِ كَلَامِهِمْ كَمَا يَنْتَقِي أَطَايِبَ الثَّمَرِ[2]، وَلَا تَتَكَلَّمْ إِلَّا إِذَا تَرَجَّحَتْ مَصْلَحَةُ الْكَلَامِ، وَعَلِمْتَ أَنَّ فِيهِ مَزِيدًا لِحَالِكَ، وَمَنْفَعَةً لِغَيْرِكَ.

الْعَاشِرُ :مُبَاعَدَةُ كُلِّ سَبَبٍ يَحُولُ بَيْنَ الْقَلْبِ وَبَيْنَ اللَّهِ عَزَّ وَجَلَّ.

فَمِنْ هَذِهِ الْأَسْبَابِ الْعَشَرَةِ: وَصَلَ الْمُحِبُّونَ إِلَى مَنَازِلِ الْمَحَبَّةِ، وَدَخَلُوا عَلَى الْحَبِيبِ. وَمِلَاكُ ذَلِكَ كُلِّهِ أَمْرَانِ:

اسْتِعْدَادُ الرُّوحِ لِهَذَا الشَّأْنِ، وَانْفِتَاحُ عَيْنِ الْبَصِيرَةِ.

وَبِاللَّهِ التَّوْفِيقُ . (مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين.(3/ 18))

قال الشيخ عادل السيد حفظه الله في شرح كتاب دعوة التوحيد المجلس رقم 21 :

ثم يقول رحمة الله عليه ابن القيم الأسباب الجالبة للمحبة، عشرة. عشرة أسباب هي الجالبة للمحبة، والكلام ده أطال النفس فيه في سورة في تفسير آ آ كتاب "مدارج السالكين".

ما هي الأسباب الجالبة لمحبة الله؟ واحد، قراءة.. سنقرؤها مختصرة وإن كانت تحتاج إلى دورة، وتحتاج إلى شرح، وإلى إفاضة، يعني من الممكن أن تشرح هذه سبب سبب كل سبب يتعمل منه خطبة، أو كل سبب يتعمل منه محاضرة، أهو بنفتح لكم أبواب أهو، أو يتعمل فيه رسالة أو بحث.

يقول: قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به، أول حاجة، يلا اشتغلوا.

قراءة القرآن بالتدبر والتفهم لمعانيه وما أريد به، ده يؤلف فيه كتاب ويتعمل فيه رسايل، قراءة القرآن بالتدبر.

اثنان: التقرب إلى الله بالنوافل، بعد آداء الفرائض، التقرب بالنوافل، هذا يزيد المحبة.

ثلاثة: دوام ذكره، على كل حال، باللسان والقلب والعمل والحال، وطبعًا إحنا ذكرنا شيئًا، نتفة من النتف بخصوص قضية الذكر، وكيف تحبب الإنسان في ربه.

قال: إيثار محابه على محابك عند غلبات الهوى، حينما يغلبك الهوى تؤثر محبة الله على محبة هواك، ما تريده أنت يعني تقدم مراد الرب على مرادك أنت، لأن الأمر سيحدث فيه ازدحام، للمحاب، فما تحبه أنت ويحبه ربك إن تعارضا ماذا تقدم؟ محبة الرب على محبتك هنااا هنااا يظهر علو المحبة لله واصطفاء الله لك.

خمسة: مطالعة القلب لأسمائه وصفاته، ومشاهدتها، ومعرفتها، وتقلبه في رياض هذه المعرفة وميادينها، فمن عرف الله بأسمائه وصفاته وأفعاله أحبه لا محالة. وهذا هو فقه الأسماء الحسنى، الأسماء الحسنى، ولذلك هذا الفرق بين دراسة أهل السنة والجماعة للأسماء ودراسة المتلكمين، المتكلمين حينما يدرسون الأسماء والصفات، الدراسة بتكون فلسفية محضة، دراسة تقسي القلوب، لكن دراسة الأسماء الحسنى والصفات العليا في القرآن تحبب الإنسان في الله وترفع أعلى عبودية، أعلى عبودية بعد التوحيد، وهي من التوحيد، بل هي شرح واستفاضة وإفاضة لمعاني التوحيد، أن تعرف فقه الأسماء الحسنى والصفات العليا، فكلما درست وتمكنت من دراسة الأسماء والصفات لأن الإيمان الاسم له أركان، أركان الإيمان بالاسم إيه؟ ثلاثة، الإيمان بالاسم، والإيمان بما دل عليه الاسم من معنى، اللي هو الصفة، والإيمان بما تعلق به الآثار كما قال ابن القيم:

أسماؤه دلت على أوصافه .. مشتقةً منها اشتقاق معاني

وأوصافه دلت على أسمائه .. والفعل مرتبط به الأمرانِ

فإذن عندك إيمان بالأسماء الحسنى ومعرفة الأركان ودراسة، تشرح الاسم وتفهم معناه، وتنظر إلى اتصاف الله بهذا الاسم، واللوازم، إلا اللوازم بدلالة الالتزام، تجد كل اسم من الأسماء يستلزم مجموعة من الأسماء الأخرى والصفات العليا، فتجد نفسك حينئذ تعلم أن رب العالمين يتصف بهذه الصفات، فإذن هو يملك كل شيء، هو يملك هو خلقك، هو رزقك، هو يعطي، ويمنع، لا يعطي ولا يمنع سواه، والعباد كلهم قلوبهم بين إصبعين من أصابع الرحمن يقلبهم كيف يشاء.

العابد لا يعبد إلا إذا أذن الله أن يعبد، إذنًا قدريًا، إذن قدري، الكلمات الكونية والكلمات القدرية، بها بالكلمات الكونية، يقع الكفر والإيمان، الكافر لا يستطيع أن يكفر إن أذن رب العالمين، المؤمن لا يستطيع أن يعبد إلا إن أذن رب العالمين، هو الذي جعل المصلي مصليًا، هو الذي جعل المزكي مزكيًا، هو الذي جعل كل شيء في الكون من خلقه، كل شيء في الكون من صنعته ﴿وَاللَّهُ خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾ [الصافات: 96]، ليس معنى ذلك أنك ليس لك إرادة، وليس لك مشيئة، لا، ولكن عظمة الرب أن مشيئة الخلق تابعة لمشيئته سبحانه، ﴿وَمَا تَشَاءُونَ إِلَّا أَنْ يَشَاءَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾ [التكوير: 29]، ﴿خَلَقَكُمْ وَمَا تَعْمَلُونَ﴾، فأنت كعبد لكي تنتج عملًا من الأعمال لا بد وأن تكون لك إرادة جازمة وأن يكون لك إيه؟ قدرة تامة على الفعل، فإن وجدت الإرادة اللازمة مع القدرة التامة نتج العمل، ومن الذي خلق الإرادة الجازمة فيك؟ رب العالمين، من الذي خلق القدرة التامة على فعل العمل، رب العالمين، ولو شاء لجعل قدرتك غير تامة أو جعل إرادتك غير جازمة فإن لم تكن الإرادة جازمة وكانت مترددة لن يخرج العمل، لن يخرج إلا بجزم وعزم من حديد، وإذا لم تكن القدرة تامة لم يخرج العمل، عندك عزم وعايز أعمل بس مش قادر أعمل، لكن من الذي يعطيك هذه القدرة؟ ولذلك يخرج العمل منك من صنعتك ولكنه من خلق الله، أنت الصانع، أنت الفاعل، لكن الخالق مين؟ رب العالمين، والأشاعرة لم يهتدوا إلى هذا، قالوا بقضية الكسب وكانت قضية غير مفهومة حتى عندهم، وأطالوا النفس فيها وامتلأت الأفواه بالماء كأقوال الفلاسفة سلمنا الله وإياكم.

يقول بعد أن ذكر مطالعة القلب لأسماء الله وصفاته: مشاهدة بره، وإحسانه، ونعمه الظاهرة، والباطنة، فإنها داعية إلى محبته.

مشاهدة البر، والإحسان، والتفضل، والنعم الظاهرة والباطنة، فإن كل ذلك يدعو إلى محبة الله.

سبعة: وهو أعجبها، اسمع، سبعة وهو أعجبها، لأن كل اللي فات ده ممكن يستطيع الإنسان أن يفعله، لكن ده أخطر.

قال: انكسار القلب بكليته بين يدي الله، هذه مسألة عظيمة، أن ينكسر القلب، ولذلك قال (وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ) [الحج: 36]، الذين حققوا مقام الإخبات لله والتواضع، حدث تواضع، وانكسار للقلب، انكسار للقلب، وأصبح القلب متواضعًا مخبتًا خاضعًا ذليلًا بين يدي الله.

قال ثمانية: الخلوة وقت النزول الإلهي، في الثلث الأخير من الليل، هذا الوقت الذي يخلو كل حبيب بحبيبه فيه أو يغط الناس في نوم عميق، الخلوة وقت النزول الإلهي لمناجاته، من يستيقظ في هذه الساعة قبل الفجر لكي يختلي بربه، وقت.. هذه تحصل المحبة، أعظم سبب من أسباب تحصيل المحبة في ذلك الوقت، لأنه ما الذي يجعلك تقوم في هذه الساعة المتأخرة من الليل، هذه الساعة ما الذي يجعلك تترك الفراش الدفيء لتأتي لتناجي ربك إلا لأنك مؤمن أن في هذه الساعة ينزل ربنا إلى السماء الدنيا ويخاطب الناس، ويطلب من المستغفرين أن يستغفروا ويطلب من الطالبين الحاجات أن يطلبوا منه سبحانه، في هذه اللحظة، هل أنت تستيقظ لكي تخلو بربك في هذا النزول الإلهي وتناجيه وتتلو كلامه، وما أحلاها من تلاوة، وما أحلاها من مناجاة، والوقوف بالقلب، والتأدب بآداب العبودية.

يعني طالب العلم ممكن نعلم طلابًا كثيرين للعلم يسهرون والوقت يبقى.. وأمر بالنسبة له جميل إنه يقعد يقرأ كتب ابن تيمية وكتب ابن القيم وابن كثير وكتب تفسير وكتب لغة وكتب فقه، ويسهر لغاية ما الفجر يدركه، هل استطاع طالب العلم في هذه اللحظة أن ينحي هذا الأمر المحبب للنفس والذي فيه هوى غالب، يتركه جانبًا، ويقول أنا عايز أصلح قلبي مع ربي، سأترك هذا.. وتترك القاسمي وأترك.. أنا بتكلم عن الصنعة.. التفسير يعني، اترك كتب كذا واترك كتب كذا واترك كتب الفقه وأدرس كذا، وسأنادي ربي لمدة ربع ساعة، فقط، مناجاة لله، ذكر لله بتدبر وبتفكر، ساعة إذ ستحس بحلاوة الذكر، ساعة إذ ستحس بقرب المناجاة، ساعة إذ ستتعلم شيئًا اسمه لذة الطاعة، تتعلم شيء اسمه لذة المناجاة، لذة ذكر لله، لذة إنك تقرأ القرآن الكريم وكأنك تسمع كلام الرحمن الرحيم يقرؤه ويتكلم به.

فيقول: الخلوة وقت النزول الإلهي لمناجاته وتلاوة كلامه والوقوف بالقلب والتأدب بآداب العبودية بين يديه، ثم ختم ذلك بالاستغفار والتوبة، أنت تستحق أن تستغفر، أنت في هذه اللحظة تستغفر، تستغفر لإيه؟ للطاعة، هل أنت أديت حق هذه الطاعة كما جاء في قول الله تبارك وتعالى (وَالَّذِينَ يُؤْتُونَ مَا آتَوْا وَقُلُوبُهُمْ وَجِلَةٌ أَنَّهُمْ إِلَى رَبِّهِمْ رَاجِعُونَ) [المؤمنون: 60]، تقول السيدة عائشة للنبي عليه الصلاة والسلام: يا رسول الله ﷺ هل هؤلاء الذين يسرقون ويشربون الخمر هل يخافون؟ قال لا يا عائشة، لا يا بنت الصديق، وإنما هؤلاء هم الذين ها؟ هؤلاء هم الذين يؤتون ما آتوا من الطاعات، يؤتون ما آتوا من الطاعات وهم يخافون ألا يقبل هذا الأمر، اسمع الحديث: "لا يا بنت الصديق، لكنهم الذين يصومون ويصلون ويتصدقون وهم يخافون ألا تقبل منهم" (أُولَئِكَ يُسَارِعُونَ فِي الْخَيْرَاتِ وَهُمْ لَهَا سَابِقُونَ) [المؤمنون: 61].

الإمام الشيخ الألباني رحمة الله عليه بيقول كلام نفيس جدًا جدًا آآآ في هذا الشأن، بيقول في السلسلة الصحيحة الجزء الأول صفحة 257 بعد أن ذكر حديث عائشة، يقول:

والسر في خوف المؤمنين ألا تقبل منهم عبادتهم، ليس هو خشيتهم ألا يوفيهم أجورهم، يعني هما خايفين أحسن ميوفيهومش أجورهم، قال فإن هذا خلاف وعد الله إياهم في مثل قوله (وَأَمَّا الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ) بل إنه يزيدهم عليها كما قال تعالى (فَيُوَفِّيهِمْ أُجُورَهُمْ وَيَزِيدُهُمْ مِنْ فَضْلِهِ) [النساء: 173]، والله تعالى لا يخلف وعده كما في كتابه (لَا يُخْلِفُ الْمِيعَادَ) ولا يخلف الوعد، وأن إنما السر، طب السر في خوف المؤمنين، طب إذا كانوا عارفين إن رب العالمين صدق حينما وعد، وسيوفي بل سيزيد من فضله، فما هو السر في خوفهم؟ اسمع حتى تعلم من أين نؤتى.

قال إنما السر أن القبول متعلق بالقيام بالعبادة، كما أمر الله، وهم لا يستطيعون الجزم بأنهم قاموا بها على مراد الله، هل أنت واثق من أنك قد قمت بالعبادة على مراد الله؟ بل يظنون أنهم قصروا في ذلك، ولهذا فهم يخافون ألا تقبل منهم، يبقى خايفين متتقبلش ليه، علشان خايف أحسن يكون محققش شروط الطاعة، قد تكون توجد موانع أو الشروط متحققتش، لا بد وأن توجد شروط وانتفاء الموانع، فقد تكون الموانع قد وجدت أو الشروط انتفت.

قال: بل يظنون أنهم قصروا في هذا ولذلك فهم يخافون ألا تقبل منهم، فليتأمل المؤمن، ده كلام الشيخ الألباني رحمة الله عليه، فليتأمل المؤمن هذا عسى أن يزداد حرصًا على إحسان العبادة والإتيان بها كما أمر الله، وذلك بالإخلاص فيها لله، واتباع نبيه عليه الصلاة والسلام في هديه فيها.

ونعود إلى كلام الإمام ابن القيم لنختم به إن شاء الله تعالى.

يقول بعد أن ذكر الخلوة وقت النزول الإلهي قال:

تسعة: مجالسة المحبين الصادقين، والتقاط أطايب ثمرات كلامهم، يعني جالس المحبين الصادقين بالفعل، المحبين الصادقين لله جالسهم، والتقط منهم أطايب ثمرات كلامهم، وهو العلماء بالكتاب والسنة، ولا تتكلم، اسمع بقى دي، دي بقى اللي ممكن تضيع كل اللي إحنا بنعمله، وللأسف موجودة فينا كلنا إلا من رحم ربي، وإلا من عصم ربي، للأسف بنحاول إن إحنا ننفذها بس صعبة جدًا، بيقول إيه بعد مجالسة المحبين؟ ولا تتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام، متتكلمش، كل الكلام يا ليك يا عليك، الكلام يا ليك يا عليك، لا تتكلم، إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام.

هل نحن لا نتكلم إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام؟ نحن كلامنا تسعة أعشار كلامنا قابلة للحذف، كما قال أحمد شوقي الشاعر:

لو ترك الناس اللغو من كلامهم لما تكلموا أبدًا، اللي بنقوله أو بنكتبه بإيدينا، إخوانا اللي بيقعدوا على الفيس بوك يكتبوا ويعملوا، هل أنت لا تكتب إلا إذا ترجحت مصلحة الكتابة؟ هل أنت لا تتكلم في أي مجلس من المجالس إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام؟ هل أنت تفعل هذا؟ إن كنت فعلت هذا، فأنت يعني محظوظ، يبقى إنت صاحب حظ عظيم، راعي نفسك، وراجع نفسك في هذا الأمر، لا تتكلم، إلا إذا ترجحت مصلحة الكلام، وعلمت أن فيه مزيدًا لحالك، ومنفعة لغيرك، متتكلمش إلا لما تعرف الكلمة اللي هقولها دي، هتتكتب عليا، طب ما هي ممكن تكون هتتكتب عليا والكلمة مش هترفع حالي، أنا مش هتكلم إلا مش شرط يكون معصية، لأ، ده أنا مش هتكلم إلا لما يكون الكلام هيرفع حالي ويقربني إلى الله أو ينفع غيري، أنت لا بد وأنت تكون نفاعًا، المؤمن لا بد وأن يكون نفاعًا، خلي بالك نفاع حيث ما كان، وجعله إيه؟ ها؟ (وَجَعَلَنِي مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنْتُ) [مريم: 31]، مبارك، كلام الإنسان يكون فيه بركة، لا تتكلم إلا لمصلحتك الأخروية، أو مصلحة الآخرين تنفع الناس، ممكن واحد يقولك منا بتكلم لمنفعة غيري بغتابه، فلما بغتابه بديله حسنات، ما هي دي الوكسة اللي للأسف واقعين فيها، بنتكلم لمصلحة غيرنا بس بطريقة معكوسة، ما هو بيقولك هنا لمصلحتك أو لمصلحة غيرك، بس بشرط ميكونش مصلحة غيرك فيها إيه؟ هتعمل إنت مسكين لو دخل كل الناس الجنة ودخلت إنت النار هتعمل إيه؟ ما الذي ستستفيده لو دخل الناس الجنة وإنت دخلت النار؟ يبقى حينما تريد أن تنفع الغير لا بد وأن تنفعه بشرط أن تكون إيه؟ نافعًا له ولنفسك أولًا.

عشرة: مباعدة كل سبب يحول بين القلب وبين الله، ابعد أي سبب أي شيء، يحول بين الله وبين قلبك، الشيء الذي سيكون سببًا لظلمة القلب، الشيء الذي سيكون سببًا والعياذ بالله لإبعادك عن الله، فاحذرهم.

قال: فمن هذه الأسباب العشرة وصل المحبون إلى منازل المحبة، ودخلوا على الحبيب، وملاك ذلك أمران، استعداد الروح لهذا الشأن، الثاني انفتاح عين البصيرة.

وإلا قول للناس سمعهم القرآن كله، كل كتب التفسير، كل كتب الحديث، ومفيش بصيرة، صدقني لن يستفيد الإنسان، لن يستفيد إلا إذا كان عنده بصيرة، استعداد الروح لهذا الشأن، وانفتاح عين البصيرة.

اللهم نسألك حبك، وحب من يحبك، وحب العمل الذي يبلغنا حبك، وأكتفي بهذا القدر.

سبحانك اللهم وبحمدك، أستغفرك وأتوب إليك، نشهد أن لا إله إلا أنت، نستغفرك ونتوب إليك، وصلى الله وسلم وبارك على سيدنا محمد وعلى آله وصحبه أجمعين. والسلام عليكم ورحمة الله.